قبل الندم

أبو الحسن بن محمد الفقيه

مصدر هذه المادة :







بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه... وبعد:

فإن عمر الإنسان مهما طال فهو قصير.. لأنه آيل في النهايـــة إلى انقطاع محتوم.. وأجل مرسوم...

وإذا تأملنا في حركة التاريخ.. وتداول الأيام فيها بـــين بـــني البشر.. نوقن أن الحياة.. ما هي إلا سحابة صـــيف.. أو ومضـــة طيف.. يمكث بريق ومضتها قليلاً.. ثم يخطـــف مؤذنًـــا بهـــلاك الأحياء..

وهذه هي إرادة الله عز وجل في الخلق.. وتدبيره في الكون!

فلقد خلق الأرض ومهدها.. ورفع السماء وزينها.. وأنـــزل الإنسان من رغد الجنان.. إلى – تلك الأرض – مكان الامتحان!

فهي ليست مسكنه في الأصل، وإنما هو فيها نزيل.. يعمرهـــا حينًا من الدهر ثم يزول.. ليعود إلى موطنه الأصيل.. إن هو تخطى ذلك الامتحان.

فأي امتحان نقصد؟ إنه امتحان «الطاعة للخالق».

فمن أطاعه في أمره.. فقد فقه سر الحياة.. وســـلك ســـبيل النجاة! ومن عصاه.. واتبع هواه.. سلك سبيل الشقاء!

ولذا قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

وقد بين سبحانه العمل الذي خلق الحياة من أجله فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ثم أقسم سبحانه بهذه الحياة التي خلق.. أن الخاسر هو من يفرط في العبادة.. ويسلك سبل الضلال.. فقال: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر].

ثم بين سبحانه أن وقت الخسارة هو وقت الحساب لكيلا يغتر - مغتر - بسعادة متاع الدنيا. فقال: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

فانظر - أخي الكريم - إلى موقعك من الربح والخسارة.. فتلك مقاييسها في الحياة.. وتأمل في حقيقة خلقك.. وحقيقة حياتك.. ويقين موتك.. ثم اسأل نفسك أين أنا؟ وأين أسير؟ وماذا أعددت من زاد لهذا المسير؟

كلنا نخطئ ولكن...

أخي الكريم...

لقد شاء الله أن تكون مخطئًا.. وأن يكون بنو آدم كلهم مخطئين.. وجعل سبحانه في مشيئته حكمة بليغة.. تذكر خلقه بكمال صفاته.. وجمال مغفرته ورحماته..

فكان خطأ الإنسان هو طريق معرفة صفة الكمال للرحمن..

وكانت التوبة من ذلك الخطأ هي طريق معرفة ما لديه سبحانه من جميل العفو وسعة الغفران.

لذلك قال رسول الله ﷺ: «**كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون**»[(١)] وإلا فمن ذا الذي يعجز الله في أرضه.. ويعصاه في أمره.. لولا إذنه ومشيئته وإرادته!

وتنبه أخي المسلم إلى أن إرادة الله جل وعلا ومشيئته هنا هي مشيئته كونية، لا مشيئة شرعية.. فهو لا يرضى لعباده المعاصي والكبائر والكفر.. ولكن صدور هذه الأفعال عن عباده لا تحصل لها الكينونة إلا بإذنه وإرادته..

فالذنب كوني الحدوث مقدر
منذ القديم على بني حواء
لم يرضه الرحمن شرعًا حادثًا
بل أوعد العاصين بالإشقاء [(٢)]

وإذنه سبحانه للعاصي بالمعصية.. وللطائع بالطاعة.. لم يكن إلا بعد قيام الحجة.. وتوضيح المحجة.. بإنزال الكتب.. وإرسال الرسل.. ﴿**قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ [الأنعام: ١٤٩].

(١) رواه الترمذي وأحمد وسنده حسن.
(٢) من «منظومة الاعتقاد» للكاتب

فهو سبحانه قد بين لك أسباب الهداية.. وسـبيل الرشـاد ، وأسباب الغواية.. وطرق الفساد.. قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ** ﴾ [البلد: ٨-١٠].

وعرفك أعداءك الذين يحتالونك للمعاصي.. وجعل لك من قوة البصر واتقاء الفكر.. ونفاذ النظر.. ما تميز به الخطأ من الصواب..

ولكن لعلمه سبحانه بنقص في تكوينك.. وغفلة في تخمينك.. وشهوة تحتويك.. وعجلة تستهويك.. جعل لك مخرجًا يُجبر كسر ضعفك.. ويسد نقص خلقك بل ويطلعك على واسع رحمة ربك.. فتزيد له خضوعًا وخشوعًا.. إنه التوبة!!

ومن هنا فإن الإنسان – أي إنسان – لا يسلم من ركـوب مطايا الزلل.. وإنما تتفاوت خيريته بالبعد عن الإصرار والاستكبار.. والخوف من الملك الجبار.. وتجنب العناد.. فإن صدر منه ذنب لغلبة الطباع.. أو غفلة والخداع.. أو شهوة لمتاع.. سارع إلى طرق باب التوبة.. وأظهر ندمه على الحوبة.. وأعلن عزمه على الرجوع والأوبة.. فإذا به يتذوق لذة التعبد والخضوع.. حينما يُلامس غلاف قلبه الخشوع.. وهو يذرف بين يدي توبته الدموع.. وقد فرح به ربه.. وانقشع عنه كربه.. وكتب في ديوان التائبين..

فهل تأملت أخي الكريم في عظيم مراد الله من خطأ الإنسان!

قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لـذهب**

الله تعالى بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفـــر لهم» [رواه مسلم].

إذًا فكلنا نخطئ.. ولا معصوم إلا من عصمه الله من الأنبيـــاء والرسل في تبليغ رسالة الدين.. ودعوة الناس إلى رب العالمين!

من ذا الذي مـــا ســـاء قـــط ومـــن لـــه الحســـنة فقـــط

أخي المسلم...

فإذا عرفت أن الخطأ من صفات بشرية الإنسان.. وعرفت أن التوبة تجبر ذلك الخطأ.. فلا تيأس إذًا كلما وقعت في العصـــيان.. وكلما مسك طائف من الشيطان.. وكلما انتابتك غفلة أو شهوة أو نسيان.. وقم بعد ذكر الله من عثراتك إلى اســـتئناف مســـيرة العبودية.. لتنال بها السعادة الأبدية.

وتذكر أن الله سبحانه يقبل منك توبتك.. ويجب بها حوبتك.. بل يفرح بصنيعك أيما فرح! يقول ﷺ: «**لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلتـــه بـــأرض فـــلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منـــها فـــأتى شـــجرة فاضطجع في ظلها، وقد أيس من راحلته، فبينما هو كـــذلك إذ هو بها، قائمة عنده، فأخذ بخطامها [1] ثم قال من شدة الفـــرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربـــك، أخطـــأ مـــن شـــدة الفـــرح**» [رواه البخاري ومسلم].

---

(١) الخطام: الحبل الذي يقاد به البعير.

ويزيـــــد إجـــــلالي لوجهـــــك أنـــــني
أدري بأنـــــك غـــــافر الـــــزلات
فـــأعود مـــن غيـــي وأخشـــع تائبًـــا
وأظـــل أطمـــع فيـــك بالـــدعوات
ولقـــد علمـــت الله يفـــرح كلمـــا
أعلنـــت تـــوبي راجـــي الرحمـــات
ولأنـــني عبـــد ظلـــوم جاهـــل
ســـأتوب دومًـــا مـــا حييـــت حيـــاتي [1]

وعن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**قال إبليس: يـا رب وعزتك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الله عز وجل: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني**» [رواه أحمد].

فهل أدركت أخي الكريم حاجتك إلى التوبة.. وضرورتك إلى الأوبة؟!

وهل عرفت عظيم رحمة الله وسعة مغفرته.. لمن لاذ بالاستغفار وتجنب الإصرار؟!

مغالطات في تأخير التوبة

أخي... يا من دعاك إبليس.. فـأغواك.. فتركـت الطاعـة واتبعت هواك.. وجعلت تتقلب في الشهوات.. وتترامى في دروب

(١) «عظات ورقائق» للكاتب.

الظلمات.. ليلك سهر ومجون.. ونهارك نوم وعصيان.. قد هجرت المسجد فلا تدخله إلا قليلاً.. وتحولت عن القـــرآن تحـــويلاً.. و لم تعرف إلى الطاعة دليلاً.. فأنت أسير نفسك.. وصريع بأسك..

وكلما ناداك منادي الإيمان.. أن ارجع عن غيـــك! لهجـــت بالاستغفار.. وأضمرت في قلبك الإصرار..! وربما سوفت توبتـــك إلى أجل غير مسمى!

فإلى متى هذه الغفلات.. وإلى متى المغالطات؟!

وإليك أخي جملة من المغالطات التي تكون سببًا في تأخير التوبة وحصول الندم!

١- خطر تسويف التوبة:

أخي الكريم... لا شك أن اللوم على المعاصي يعتريـــك.. وأن تأنيب النفس من حين لآخر يؤذيك.. ولكنك قد تمنى نفسك بالعزم على الإقلاع.. وترك محرمات المتاع.. في القريب العاجل.. وفي يوم آجل.. فمتى يكون يوم توبتك؟!

إنك مخدوع ولكن لا تدري.. تغـــالط نفســـك.. وتهـــدئ حسك.. وتركب مركبًا يسهل الطريـــق إلى الندامـــة والحســـرة والدمار.. ويذلل المسير إلى العذاب والخسار..! إنه التسويف!!

كـــم ذا أغـــالط أمـــري كـــأنني لســـت أدري
أغفلـــت الـــذي كـــان في مقـــدم عمـــري
ولم أزل أتمـــادى حـــتى تصـــرم دهـــري

مـــالي إذا صـــرت رهنـــا بالـــذنب في رمـــس قـــبري
فليـــت شـــعري مـــتى أدرك المـــني ليـــت شـــعري

أتراك ضامن أجلك!! أم تراك تقوى مدافعة المـوت إن أتـاك وغفلك!!

وكيف إذا قبض الله روحك وأنت لاهٍ في المعاصي.. أفيكـون التسويف عذرك.. أم حسن الظن سترك؟

يـــا نـــائم الليـــل مســـرورًا بأولـــه
إن الحـــوادث قـــد يـــأتين أســـحارا

واسمع أخي الكريم إلى هذه القصة المـؤثرة.. لتـدرك غبـة الاسترسال في المحرمات.. وخطر مفاجأة الممات!!

يقول صاحب القصة: كنا ثلاثة من الأصدقاء، يجمـع بيننـا الطيش والعبث، بل أربعة.. فقد كان الشيطان رابعًا.. فكنا نذهب لاصطياد الفتيات الساذجات بالكلام المعسول، ونسـتدرجهم إلى المزارع البعيدة، وهناك نفاجأ بأننا قد تحولنا إلى ذئـاب لا تـرحم توسلاتهن، بعد أن ماتت قلوبنا.. ومات فينا الإحساس.

هكذا كانت أيامنـا ولياليـنا في المـزارع.. في المخيمـات والسيارات.. وعلى الشاطيء.. إلى أن جاء اليوم الذي لا أنساه..

وذهبنا كالمعتاد للمزرعة.. كان كل شيء جاهزًا.. الفريسـة لكل واحد منا.. الشراب الملعون.. شيء واحد نسيناه هو الطعام.. وبعد قليل ذهب أحدنا لشراء طعام العشاء بسيارته.. كانت الساعة السادسة تقريبًا عندما انطلق.. ومرت الساعات دون أن يعـود..

وفي العاشرة شعرت بالقلق، فانطلقت بسيارتي أبحث عنه.. وفي الطريق شاهدت بعض ألسنة اللهب (النار) تندلع على جانبي الطريق..

وعندما وصلت فوجئت بأنها سيارة صديقي والنار تلتهمها وهي مقلوبة على أحد جانبيها.. أسرعت كالمجنون أحاول إخراجه من السيارة المشتعلة، وذهلت عندما وجدت نصف جسده قد تفحم تمامًا، ولكن كان ما يزال على قيد الحياة.. فنقلته على الأرض، وبعد دقيقة فتح عينيه وأخذ يهذي: النار.... النار.. فقررت أن أحمله بسيارتي وأسرع به إلى المستشفى.. ولكنه قال بصوت باكٍ: لا فائدة لا أمل.. فخنقتني الدموع وأنا أرى صديقي يموت أمامي.. وفوجئت به يصرخ ويقول: ماذا أقول له؟

نظرت إليه بدهشة وسألته: من هو؟

قال بصوت كأنه قادم من بئر عميق: الله.

أحسست بالرعب يجتاح جسدي ومشاعري، وفجأة أطلق صديقي صرخة مدوية ولفظ آخر أنفاسه..

ومضت الأيام.. لكن صورة صديقي الراحل وهو يصرخ والنار تلتهمه: ماذا أقول له؟ ماذا أقول له؟

ووجدت نفسي أتساءل: وأنا.. ماذا أقول له؟ فاضت عيناي واعترتني رعشة غريبة.. وفي الوقت نفسه سمعت المؤذن ينادي لصلاة الفجر: الله أكبر فأحسست أنه نداء خاص بي، يدعوني لأسدل الستار على فترة مظلمة من حياتي.. يدعوني إلى طريق النور

والهداية.. فاغتسلت وتوضأت، وطهرت جسدي من الرذيلة الـــتي غرقت فيها لسنوات.. وأديت الصلاة.. ومـــن يومهـــا لم تفـــتني فريضة[١].

مـــالي رأيتـــك تطمـــئن إلى الحيــــاة وتــــركن
وجمعـــت مـــا لا ينبغـــي وبنيـــت مـــا لا تســـكن
وســـلكت فيمـــا أنـــت في الـــدنيا بـــه متـــيقن
أظننت أن حـــوادث الأيـــــام لا تــــتمكن؟!!

أخي الكريم...

تصور نفسك مكان ذاك الشاب.. وقـــد فاجأتـــك ســـكرة الموت.. وحسرة الفوت.. وأنت تلفظ أنفاســـك علـــى خـــوف شديد.. من النار والوعيد.. وقد هالتك حشـــرجة الاحتضـــار.. وآلمك ما كنت فيه من إصرار.. تتمنى لو يزداد في عمرك ســـاعات معدودات.. تقضيها في التوبة والطاعات..

أتـــأمن أيهـــا الســـكران جهـــلاً
بـــأن تفجـــأك في الســـكر المنيـــة
فتضـــحي عـــبرة للنـــاس طـــرًا
وتلقـــى الله مـــن شـــر البليـــة

فعجل – رعاك الله – بالتوبة.. قبل الندم.. وقبل زوال القدم!!

وانـــدب زمانًـــا ســـلفا ســـودت فيـــه الصـــحفا

(١) أخي الشاب إلى أين تسير، لمحمد أمين مرزا عالم، ص١٠-١٢.

ولم تــــــزل معتكفًـــــــا على القبـــيح الشـــنع
كــــم ليلـــة أودعتــــها مآثمـــــــاً أبدعتـــــــها
لشـــــــهوة أطعتـــــــها في مرقــــــد ومضـــــجع
وكـــــم خطـــى حثثتـــها في خزيــــــة أحدثتـــــها
وتوبـــــــة نكثتـــــــها لملعــــــــب ومرتــــــع
وكـــــم تجـــرأت علـــــى رب الســـــماوات العلــــى
ولم تراقبـــــــــــــه ولا صـــــدقت فيمـــا تــــدعي
وكـــــم غمطــــت بـــره وكـــــم أمنـــــت مكــــره
وكـــــم نبـــذت أمـــره نبــــذ الحـــــذا المرقـــــع
وكــم ركضــت في اللعــب وفهـــت عمـــدًا بالكـــذب
ولم تـــراع مـــا يجـــب مـــن عهــــده المتتبـــع
فـــالبس شـــعار النـــدم واســـكب شـــآبيب الـــدم
قبـــــل زوال القـــــدم وقبـــل ســـوء المصـــرع
واخضع خضــوع المعتــرف ولـــذ مـــلاذ المقتـــرف
واعـــص هـــواك وانحـــرف عنــــه انحـــراف المخلـــع
إلام تســـــــهو وتـــــني ومعظـــم العمـــر فـــني
فيمـــا يضـــر المفـــتني ولســــــت بالمرتــــــدع

٢- الاتكال الخاطيء على المغفرة:

لا شك أن الله جل وعلا.. غافر الذنب.. وقابل التوب.. وأن سعة مغفرته لا تتناهى.. وأن جوده وعفوه لا يضاهي.

ولكن من الناس من يجعل سعة غفران الـــرحمن.. مطيـــة إلى الإصرار على العصيان.. فيستصغر ذنوبه.. ويتناسى عيوبه.. فـــلا يتورع عن فعل الحرام.. ولا يجد في نفسه على ذلك ملامًا ، كـــل ذلك ظنًا منه أن الله واسع المغفرة.. يقبل من عباده المعذرة..

فهذا من أفسد الظن وأقبحه لأنه يسوغ ارتكاب المحرمـــات.. ويفتح طريق المخالفات.. ويوجب لصاحبه الجنايات والعقوبات.

فإياك أخي الكريم.. أن تصر على موبقات الذنوب اتكالاً على مغفرة الله وعفوه.. وخيره وفضله.. وجوده وبره.. فإن الله جـــل وعلا قال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَـــرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِـــرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥] فجعل ســـبحانه المغفرة منوطة بترك الإصرار.. وجعل الأعذار لمن سارع بالتوبة عند الأذكار..

قال الحسن البصري رحمه الله: «إن المؤمن أحسن الظن بربـــه فأحسن العمل، وإن الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل»[(١)].

قال ابن القيم: «وكيف يحسن الظن بربه من هو شارد عنـــه، حال مرتحل في مساخطه وما يغضبه، متعرض للعنته، قد هان حقه وأمره عليه، فأضاعه، وهان نهيه عليه فارتكبه وأصر عليه».

وكيف يجتمع في قلب العبد تيقنه بأنـــه مـــلاق الله، وأن الله

(١) كتاب الزهد للإمام أحمد، ص٣٤٨.

يسمع كلامه، ويرى مكانه ويعلم سره وعلانيته، ولا يخفى عليـــه خافية من أمره، فإنه موقوف بين يديه، ومسؤول عن كل ما عمل؛ وهو مقيم على مساخطه، مضيع لأوامره، معطل لحقوقه، وهو مع هذا يحسن الظن به؟!

وهل هذا إلا من خدع النفوس وغرور الأماني؟!

وقد قال أبو أمامة سهل بن حنيف: دخلت أنا وعـــروة بـــن الزبير على عائشة رضي الله عنها، فقال: لو رأيتما رسول الله ﷺ في مرض له، وكانت عنده ستة دنانير أو سبعة، فأمرني رسول الله ﷺ أن أفرقها.

قالت: فشغلني وجع رسول الله ﷺ حتى عافاه الله، ثم ســـألني عنها فقال: **ما فعلت؟ أكنت فرقت الستة الـــدنانير؟** فقلـــت: لا والله، لقد شغلني وجعك. قالت: فدعا بها، فوضعها في كفه، فقال: «**ما ظن نبي الله لو لقي الله وهذه عنده؟**» وفي لفظ: «**مـــا ظـــن محمد بربه لو لقي الله وهذه عنده؟**»(١).

فيا الله! ما ظن أصحاب الكبائر، والظلمة بالله إذا لقوه ومظالم العباد عندهم!

فإن كان ينفعهم قولهم: حسنّا ظنوننا بك أنت لـــن تعـــذب ظالمًا، ولا فاسقًا ، فليصنع العبد ما يشاء، وليرتكب كل ما نهاه الله عنه، وليحسن ظنه بالله، فإن النار لا تمسه!!

(١) رواه أحمد وابن حبان وصححه، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ١٠١٤.

فسبحان الله! ما يبلغ الغرور بالعبد![1].

أخي الكريم.. إن حسن الظن بالله من أخلاق المؤمن العامل.. فهو يكون مع انعقاد أسباب النجاة.. والتأهب للحساب بعد الممات!

أما مع انعقاد أسباب الغواية.. والبعد عن الرشاد والهداية.. فلا يكون إحسان الظن في محله.. بل هو غرور أماني تحرك إلى مهاوي الحسرة والندم!!

قيل للحسن: نراك طويل البكاء؟! فقال: أخاف أن يطرحني في النار ولا يبالي [2].

وقال أبو الوفاء بن عقيل: احذره، ولا تغتر به؛ فإن قطع اليد في ثلاثة دراهم، وجلد الحد في مثل رأس الإبرة من الخمر، وقد دخلت امرأة النار في هرة، واشتعلت الشملة نارًا على من غلها وقد قتل شهيدًا.

٣- الاغترار بالنعم:

أخي الكريم.. من الناس من يغتر بإنعام الله عليه في الدنيا.. فيرى في بسط رزقه.. وسعة ماله، دليلاً على محبة الله له.. ومغفرته ورحمته.. فلا يبالي بحاله.. ولا يحاسب نفسه على أفعاله.. ولا ينظر إلى حقيقة أعماله.. وهذا مغالطة وغرور!!

---

(١) الجواب الكافي لابن القيم، ص٧٣-٧٥ (بتصرف).
(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي ٣/٢٣٣.

فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: إذا رأيت الله عز وجـــل يعطـــي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب؛ فإنما هو استدراج، ثم تلا قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُـــمْ مُبْلِسُـــونَ﴾ [الأنعام: ٤٤][1].

فلا يغرنك ما جمعته من مال.. فربما كان الهلاك في جمعـــه.. والبلية في نيله.. والرزية في فيضه..

ولو كان الإنعام دليلاً على الخيرية.. لتـــنعم في الـــدنيا خـــير البرية.. فقد كان ﷺ: «لا يجد من الدقل [2] ما يملأ به بطنه» [رواه مسلم] «وما أكل خبزًا مرققًا حتى مات عليه صلوات الله وسلامه» [رواه البخاري].

فلا تظنن – أخي الكريم – أن النعم دليل الاستقامة.. وأنهـــا فضل من الله لكل عبادة، بل إنعامه سبحانه يشمل المؤمن والعاصي والكافر.. فيعطي المؤمن إكرامًا له وتقوية له على الدين والـــدنيا.. ويعطي الكافر استدراجًا له.. ومكرًا به.

قال ابن مسعود: «إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب»[3].

---

(١) رواه أحمد وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم ٤١٣.
(٢) الدقل: التمر الرديء.
(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد رقم ٢٠٩. وقال: صحيح موقوف في حكم المرفوع.

قال بعض السلف: رب مستدرج بنعم الله عليه وهو لا يعلم، ورب مغرور بستر الله عليه وهو لا يعلم، ورب مفتون بثناء الناس عليه وهو لا يعلم.

أرى طالـــب الـــدنيا وإن طـــال عمـــره
ونـــال مـــن الـــدنيا ســـرورًا وأنعمـــا
كبـــان بـــنى بنيانـــه فأقامـــه
فلمـــا اســـتوى مـــا قـــد بنـــاه تهـــدما

فاحذر أخي من هذه المغالطة.. وانتبه أن يتـــابع الله عليـــك نعمه.. وينسيك نقمه.. فيستدرجك حتى إذا باغتـــك عذابـــه لم يفلتك!!

قال بعض السلف: إذا رأيت الله يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على معاصيه، فاحذره فإنما هو استدراج منه يستدرجك به!

تصـــل الـــذنوب إلى الـــذنوب وترتجـــي
درج الجنـــان بهـــا وفـــوز العابـــد
ونســـيت أن الله أخـــرج آدمـــا
منـــها إلى الـــدنيا بـــذنب واحـــد

٤- تعظيم الطاعة واستصغار الذنوب:

وهذا من أعظم وسائل التلبيس التي يلبس بها إبليس على العبد فيرديه في مهاوي التفليس.

فاحذر – أخي – أن تعظم في نفسك ما بذلته من قربـــات..

فتراه مجز لك عما أنت مصر عليه من الخطيئات.. فإن المؤمن يعظم شعائر الله ويكبرها.. لكنه لا يرى نفسه قد اســتكملت أداءهــا والقيام بها.. فكيف بالذي يراها عظيمة أمام ما يرتكبه من كبــائر الذنوب وفواحش العيوب!!

فهذا أبو الدرداء ﷺ كان يقول: إن أشد ما أخاف على نفسي يوم القيامة أن يقال: يا أبا الدرداء! قد علمت؛ فكيف عملت فيما علمت؟[1].

وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصــحاب الــنبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل!

وقال عثمان بن عفان ﷺ: لو أني بين الجنة والنــار، لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي لاخترت أن أكون رمادًا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير [2].

أخي الكريم.. ولو وقفت على عبارات الصــحابة والتــابعين واطلعت على خوفهم من الله جل وعلا واحتقار عبادتهم وأعمالهم — على ما كانوا عليه من الورع والتقــوى وصــدق العبــادة — لاحتقرت نفسك أيما احتقار.. ولعلمت أن الاغترار بالأعمال مــن أسباب تأخير التوبة والإنابة.. ومن مغالطات الرجوع والعــودة إلى الله سبحانه.

(١) الزهد للإمام أحمد، ص١٧٠.
(٢) الحلية لأبي نعيم الأصبهاني ١/٦٠.

فكم من عاص غره نفله.. ورأى أن ما يقدمـــه مـــن نوافـــل وأذكار يجزيه ويكفيه مظالمه في بيته.. أو في إدارته..

وكم من مغرور يبيت على المعاصي والسيئات.. ثم يهمـــس بالاستغفار قليلاً.. ويسبح من حين إلى حين.. ويظن أن أمـــره إلي خير..

وما هذا إلا من نزغ إبليس وتلبيسه.. فإن المؤمن هـــو مـــن يجتنب محارم الله ويخافه.. ويطيعه في أمره ويرجوه.. ويحتقر عملـــه مهما كان.. ويعظن ذنبه مهما قل.. فيعيش حياته بـــين الرجـــاء والخوف..

قال بلال بن سعد: لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر من عصيت [1].

وقال الفضيل: بقدر ما يصغر الذنب عندك يعظم عنـــد الله، وبقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله.

أحســـــنت ظنـــــك بالأيـــــام إذ حســـــنت
ولم تخـــف ســـوء مـــا يـــأتي بـــه القـــدر
وســـــالمتك الليـــــالي فـــــاغتررت بهـــــا
وعنـــد صـــفو الليـــالي يحـــدث الكـــدر

(١) الزهد للإمام أحمد، ص٤٦٠.

وماذا إذا فات الأوان!

أخي المسلم...

إن كثيرًا من الناس يتعلقون في تأخير التوبة والرجـــوع إلى الله بتلك المغالطات:

* فمنهم من يغتر بسعة الغفران!

* ومنهم من تلهيه الدنيا ويمنيه الشيطان!

* ومنهم من يغالط نفسه بتوبة باردة.. لا يخنس معها الإصرار من الجنان!

* ومنهم من يحتج بإنعام الله وما فيه من إحسان!

* ومنهم من يعاند بالطغيان!

وجملة هؤلاء على خطر عظيم.. وهلاك جسيم.

يقول تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

أخي الكريم...

لا يغرنك كثرة الهالكين.. ولا يحزنك قلة الطائعين.. فإن الحق أثقل على النفس من الضلال.. ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

تذكر: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١]!.

تذكر يوم يقول كل فرد: نفسي نفسي.. فهل ينفعك يومهـــا أحد!!

فاحذر هذه المغالطات.. وانظر ما عملت ليوم الممات.. يوم لا تنفع الندامة.. ولا تجدي الملامة.. ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

فاحذر أن يدركك الموت وأنت على المعصـــية قـــائم.. وفي دروب التيه هائم.. تمني نفسك بالتوبـــة ولا تتـــوب.. وتهمـــس بالإقلاع ولا تؤوب.. وقد غرتك أعمالك.. وسحرتك آمالـــك.. حتى فاجأتك المنية.. وحل بك الندم! وقد فات الأوان..

فيا حسرة عليك لو باغتك المـــوت.. ووصـــلت الـــروح إلى الحلقوم.. فحينئذ لا تقبل منك توبة.. ولا ينفعك ندم.. ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨].

يـــا مــــن تعـــــد غــــدًا لتوبتـــــه
أعلـــــى يقـــين مــــن بلـــــوغ غـــــد
المـــــرء في زلـــــل علـــــى أمـــــل
ومنيـــــــة الإنســــــــان بالرمــــــــد
أيـــــام عمــــــرك كلـــــها عـــــدد
ولعـــــل يومــــــك آخـــــر العــــــدد

وتذكر – **أخي** – أن الإصرار على الـــذنب.. يصـــد عـــن التوبة.. ويثقلها على النفس.. فإذا أراد العبد الخروج من معصـــيته

أبت عليه جوارحه.. قال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤].

قيل في تفسيرها: وحيل بينهم وبين التوبة حين سألوها.

قال الحسن: ابن آدم، لا يجتمع عليك خصلتان: سكرة الموت، مع حسرة الفوت!!

وتأخير التوبة من أعظم أضرار المعاصي والـــذنوب.. فكـــل معصية تدعو إلى أختها.. وتضعف القلب عن إرادته، فتقوى إرادة المعصية – وتضعف إرادة التوبة شيئًا فشيئًا، إلى أن تنسلخ من قلب [الإنسان] إرادة التوبة بالكلية، فلو مات نصفه، لما تـــاب إلى الله.. فيأتي من الاستغفار وتوبة الكذابين باللسان الشيء الكثير، وقلبـــه معقود بالمعصية.. مصر عليها، عازم على مواقعتها متى ما أمكنه!!

وهذا من أعظم الأمراض وأقربها إلى الهلاك [(١)].

هـــون عليـــك فمـــا الـــدنيا بدائمـــة
وإنمـــا أنـــت مثـــل النـــاس مغـــرور
ولـــو تصـــور أهـــل الـــدهر صـــورته
لم يمـــس منـــهم لبيـــب وهـــو مســـرور

وقال محمد بن أبي توبة: أقام معروف الكرخي الصلاة ثم قال لي: تقدم، فقلت: إن صليت لكم هذه الصلاة لم أصل لكم غيرها، فقال لي: أراك تحدث نفسك أنك تعيش حتى تصلي صلاة أخرى،

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ص١٦٠.

أعوذ بالله من طول الأمل، فإنه يمنع من خير العمل [(١)].

أخي الكريم... ألا فجدد عهـــدك مـــع الله.. واطـــو عنـــك صفحات أيام المخالفات.. وأقبل عليه إقبال الفزع القلق.. واســـأله سؤال المضطر.. فإنه جل وعلا قال: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

مـــا مضـــى فـــات والمؤمـــل غيـــب
ولـــك الســـاعة الـــتي أنـــت فيهـــا

إنمـــا هـــذه الحيـــاة متـــاع
فـــالجهول المغـــرور مـــن يصـــطفيها

فكم من شاب في عنفوان شبابه.. خطفته يـــد المنـــون.. ولم يعرف لأسباب منيته إلا إرادة الله في انقضاء عمره وأجله!

وآخر قد مات في حادث مريع.. وآخر في مرض شنيع..

إن الليـــالي والأيـــام حاملـــة
ولـــيس يعلـــم غـــير الله مـــا تلـــد!

فاحذر أن تغبن في عمرك.. وأن تتحسر في موتك.. فتخسر في قبرك وحشرك!!

فيـــا حســـرات مـــا إلى رد مثلـــها
ســـبيل ولـــو ردت لهـــان التحســـر

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم ٨/٣٦١.

هـــي الشـــهوات الـــلاء كانـــت تحولـــت
إلى حســـــرات حــــين عـــــز التصــــــبر
فلـــــو أنهـــــا ردت بصـــــبر وقـــــوة
تحـــــولن لـــــذات وذو اللـــــب يبصـــــر

أخي... تيقظ!!

أخي...

تيقظ.. قبل الحسرة..

تيقظ.. قبل أن تقول مع من يقول: يا ليت لنا كرة!!

واصدق ربك في الرجوع إلى الله بصالح الأعمـــال.. واســـأله الثبات عليها وحسن المآل!! والحق بقافلة الرجال: ﴿مِنَ الْمُـــؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

واحرص على الصلاة فهي عنوان صلاحك وأساس فلاحـــك وطهارة قلبك وستار عيبك وماحية ذنبك.

وتأمل في المثل النبوي الشريف.. «**مثل الصـــلوات الخمـــس كمثل نهر جار غمر** (١) **على باب أحدكم يغتسل منه كل يـــوم خمس مرات**» [رواه مسلم].

فاغسل ذنوبك – أخي الكريم – بالصلاة.. واجعلـــها قـــرة

(١) غمر: أي كثير المياه بغزارته.

عينك فلا تضيع منها فرضًا أبدًا.. واحفظها تحفظك عند الله!

وكن محبوبًا في المساجد.. لهاجًا بذكر الله على كل حـــال.. مقبلاً على الآخرة.. مدبرًا عن الدنيا.. بعيدًا عن المحرمات.. سباقًا للقربات..

فمـــا هـــي إلا ســـاعة وســـوف تنقضـــي

ويـــدرك غـــب الســـير مـــن هـــو صـــابر

جعلني الله وإياك من التائبين العابدين.. وأحســـن لي ولـــك الختام.. وجنبني وإياك مواقع الحرام.. آمين..

والله المستعان ، وصلى الله على محمد وعلـــى آلـــه وصـــحبه أجمعين.



الفهرس